اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (٢٠) | الآيات [١٧٩ : ١٩٠]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

❖ مقدمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلّى الله عليه وسلم، نستكمل بإذن الله عز وجل مجالس تفسير ومدارسة سورة الأعراف.

كنا توقفنا عند قوله سبحانه وتعالى: {ولقدْ ذرأنا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجن وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوب لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُن لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءاذَان لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ} [الأعراف:١٧٩] ، نستكمل بإذن الله عز وجل.بدأت هذه الآية بالتأكيد: {ولقدْ ذرأنا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا}

وقد جعلت هذه الآية بعض المفسرين يبحث عن علاقة لها بما سبقها من آيات، **يعتقد البعض**: أنّ الخاتمة بدأت من هذه الآية، أي: بدء ختام سورة الأعراف، وحاولوا أن يربطوا بين هذه الآية وبين القصص المليء والكثير في السورة –الذي مرَّ علينا في السورة، أسأل الله عز وجل أن يتم علينا السورة على خير وأن يجعلنا من أهل القرآن– فوجدوا أن كثيرًا من المذكورين في السورة: أعرضوا عن شرع الله عز وجل وآياته، كما قال ربنا سبحانه وتعالى في الآية: {وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْد}[الأعراف:١٠٢]، وكما قلت هذه آية محورية وقعت في منتصف السورة، فأكثر الناس أعرضوا عن آيات الله عز وجل وشرعه. فجاء الختام: {ولقدْ ذرأنا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجن وَٱلْإِنسِ} [الأعراف:١٧٩]، أي أن أكثر الناس استحقوا دخول النار والعياذ بالله، فربطوا الآية بمجمل السورة كلها.

والبعض ربطها بالقصة السابقة لها مباشرة: وهي أن الله عز وجل قدّر بعلمه السابق على عالم بني إسرائيل استحقاقه دخول النار، فسبق عليه الكتاب، فدخل النار والعياذ بالله.

لذلك تكلّم بعضهم وقال: أنّ هذه الآية تشير إلى قضية القدر، وأنّ علم الله عز وجل سابق. وهنا يحدث عند بعض الناس إشكالية –مثلما تكلمنا سابقًا– ويسأل عن كيف يكون علم الله باختيار الإنسان قبل أن يختار الإنسان؟!

وحل الإشكال: صحيح أن الإنسان هو الذي يختار طريق الخير والشر: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد:١٠]، وأنه حمّل الأمانة، لا يجبره الله عز وجل على ذلك، وفي الوقت نفسه: فالله عز وجل هو الذي قدّر أعماله وأقواله، وكتب ذلك، لأن الله عز وجل علم ما سيكون من الإنسان، فخلق له هذه الأعمال، لأن الإنسان لا يستطيع أن يخلق أعمالًا.

■ إذًا كيف يحدث ذلك؟!

كما قلنا سابقًا: إن الذي يسأل عن "كيف" في أمور القدر، مثل الذي يسأل عن "كيف" في أي صفة من صفات الله، أي كأن يسأل كيف يسمع الله عز وجل البشر في نفس اللحظة؟! وكيف يجيب الله عز وجل دعاء البشر كلّهم؟ وكيف خلق الله عز وجل كذا وكذا؟

ونحن لا نعرف الكيف، ولا نكيّف، ونؤمن بالقدر. كما قلنا: القدر: هو قدرة الله، أو سر الله سبحانه وتعالى.

إذًا قالوا: هذه الآية لها علاقة بالآية السابقة مباشرة: {وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ *وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ..} [الأعراف:١٧٥,١٧٦]

فالله آتاه آياته، لكن سبق عليه الكتاب؛ لعلم الله السابق بأن هذا الرجل سوف يختار الدنيا، ويُخلِد إلى الأرض والعياذ بالله، ولما سبق عليه الكتاب، دخل في وصف الكثير، والعبرة بالخواتيم، أسأل الله لي ولكم السلامة.

وبعضهم: ربط هذه الآية: {ولقدْ ذرأنا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجن وَٱلْإِنسِ} [الأعراف:١٧٩] بآية الفطرة أو آية الاستشهاد (كل مولود يولد على الفطرة..)[1]، **فمن أهم أسباب دخول هؤلاء جهنم**: أنهم أفسدوا الفطرة، وعطلوا أجهزة الاستقبال: القلوب، والأبصار، والآذان؛ فقال ربنا سبحانه وتعالى في تتمة الآية: {..لَهُمْ قُلُوب لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُن لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَان لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا..} [الأعراف:١٧٩]؛ أي

[1] - [عن أبي هريرة:] كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فأبَواهُ يُهَوِّدانِهِ، أوْ يُنَصِّرانِهِ، أوْ يُمَجِّسانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هلْ تَرى فِيها جَدْعاءَ. البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ١٣٨٥ • **[صحيح]** • أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨)

لهم قلوب وأعين وآذان لكنّهم لا يستعملونها في الأمر الذي يرضي الرب سبحانه وتعالى، وفي الوظيفة التي يستطيع الإنسان بها أن يصل إلى مراد الله.

لذلك وقف العلماء، وقالوا: هل لا يسمعون مطلقاً؟! ولا يبصرون مطلقًا؟! ولا يفقهون مطلقا؟! هل هؤلاء الموصوفون كانوا مجانين؟! عندما يقول ربنا سبحانه وتعالى: {لَهُمْ قُلُوب لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا} فهل كانوا مجانين؟! وعندما يقول: {وَلَهُمْ أَعْيُن لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا} هل كانوا عميًا؟! وهل مقصد قوله: {وَلَهُمْ ءَاذَان لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ} أنهم كانوا صمًا؟!

قالوا: المقصد أنهم كانوا في غفلة، وإعراض، وأنهم كانوا صمًا وبكمًا عن سماع آيات الله؛ فاستحقوا هذا الوصف، فالذي يعطّل قلبه، وعقله، وسمعه، وبصره عن النظر في الشرع، فكأنه لم يستفد الاستفادة المثلى أو الاستفادة الحقيقية منهم، وأن كل نعمة لم يسخّرها الإنسان في الطاعة؛ فكأنه خسرها.

- **ما قيمة الإنسان الذي يعمل عقله في الدنيا فقط؟!**

لم يفكر ولو مرة في شرع الله عز وجل، ولم يستمع ولو مرة إلى آية من كتاب الله عز وجل، ولم يتدبر ولو مرة في آية من كتاب الله أو في خلقه، تخيل: إنسان عطل هذه الأجهزة عن النظر في الشرع! لكنه كان إنسانًا ذكيًا جداً في الدنيا، وعلى الرغم من أنه كان ذكيًا في الدنيا، إلا أن الله عز وجل قال: {لَا يَفْقَهُونَ}، و{لَا يَسْمَعُونَ}، و{لَا يُبْصِرُونَ}،

أشبه بقوله سبحانه وتعالى في أول سورة الروم: {الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ} إلى أن قال ربنا سبحانه وتعالى: {وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ} [الروم:١-٧] هل هم لا يعلمون أم يعلمون؟!

{ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[الروم:٦]، **أي**: لا يعلمون قدرة الله على التغيير، وأن الله قادر أن يبدل الأوضاع، لأن ربنا قال في أول سورة الروم: { غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ *

فِي بِضْعِ سِنِينَ * لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ} [الروم:٢-٤]، هذه الحقيقة: أن {لله الأمر من قبل ومن بعد}، تخفى على كثير من الناس، فكثير من الناس لا يتعامل إلا بالأسباب المرئية فقط، ولا يفكر فيما خلف ما يراه من أسباب، ولا يفكر في قدرة الله، ولا ينظر إلى ذلك، فقال ربنا: { وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ} حالهم كذلك: {لَا يَعْلَمُونَ}.

لكن بالرغم من وصف ربنا لهم: أنهم {لَا يَعْلَمُونَ}، فهم: {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنْ الحَيَاةِ الدُّنْيَا}[الروم:٧]، ولا يفقه إلا في الدنيا فقط. فتخيل أنّ القرآن يصف الذي يكون فقيهًا في الدنيا، ولا يفقه شيئًا في الشرع؛ سماه عز وجل أنه لا يفقه، ولا يسمع، ولا يبصر، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: {صُم بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}[البقرة:١٨] عن المنافقين، وقال: { صُم بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[البقرة:١٧١] عن الكفار، والاثنان في سورة البقرة، وصفوا بأنهم: صم، وعمي، وبكم. على الرغم من أنّه يسمع جيدًا جداً، وفي الدنيا ممتاز جداً جداً، لكنه لم يفكر مرة في دين الله عز وجل، لذلك روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله يبغض كل عالم بالدنيا جاهل بالآخرة..)[٢] **فقالوا ما معنى الحديث؟!**

-أي: الجمع بين الحديث والآية- أن الذي لا يفقه شيئًا من أمور الآخرة، ولكنه يفقه في الدنيا، فالله عز وجل يبغض ذلك الرجل، وبغض الله عز وجل ذلك العالم بالدنيا، الجاهل بالآخرة، لأنه قد كانت لديه القدرة على أن يفهم الشرع، ويبصر آيات الله سبحانه وتعالى، ويتدبر في الآيات الشرعية والآيات الكونية، ولكنه أعرض تماماً، ولم يستعمل هذه النعم والطاقات مطلقًا في شرع الله عز وجل، فسماهم ووصفهم الله وقال: {لَا يَفْقَهُونَ}.

وفي الآية نفي مطلق لكونهم يفقهون، والعجيب ما جاء في ختام الآية: {أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ } [الأعراف:١٧٩]، فالقرآن يعطيك حقائق لن تجدها إلا فيه، حقيقة حينما يتلقى الإنسان حقائق الوحي التي قد يصادم بعضها ما عليه أغلب الناس، حينما يكونوا حول شخص يقرأ القرآن، فقد يفاجأوا بهذه الحقائق، مثل أن يكون أحدهم معظّما جدًا لأهل الدنيا، ويرى أنهم أفضل الناس، ثم تأتي هذه الآيات وتقول له: أن الذي أعرض عن النظر في الآيات الكونية والشرعية إعراضًا مطلقاً هو: كالأنعام، تخيل!

---

[٢]- [عن أبي هريرة:] إنَّ اللهَ تعالى يُبغِضُ كلَّ عالِمٍ بالدنْيا، جاهِلٍ بالآخِرَةِ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ١٨٧٩ • **صحيح**

أحدهم تظل تقنعه لكي لا يتأثر بالشرق والغرب الكفار منهم الذين أعرضوا عن شرع الله عز وجل، وتجد إنسانًا يتلقى حقائق الوحي بقبول واقتناع تام، لذلك الشيخ إبراهيم السكران كان يقول: "أنا أجاهد نفسي لاحترام هؤلاء"، انظر! العكس يحدث، هناك شخص يجاهد نفسه حتى لا يفتن، وآخر يجاهد نفسه حتى يستطيع أن يعامله بشكل جيّد! لأن ربنا يقول أنهم كالأنعام، فيجاهد حتى يستطيع أن يعطيَ له حقوقه التي أمره ربنا بها، وحتى لا يظلمه.

فيقول الشيخ إبراهيم: "أنا أجاهد نفسي حتى لا أظلمه شيئا"، لأنّي عبد لله سبحانه وتعالى، فأنا مطالب أن أتعامل بالشرع، وليس بالهوى، أو العصبية، أو الحمية، حمية الجاهلية، كما ذكرنا في سورة الفتح حيث كان التعامل مع المشركين، نزلت السكينة على المؤمنين، ونزلت الحمية على المشركين.

فالمؤمن يتعامل بضوابط وشرع، فتخيل! حينما يتلقى المؤمن هذه الكلمة: {أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ}، فهناك فارق رهيب بين موازين الدنيا وموازين الآخرة، وبين موازين أهل الدنيا وموازين القرآن؛ أي المعايير القرآنية لضبط الأشياء، لذلك نحن ذكرنا قضية الموازين في أول السورة، فالإنسان الذي يتلقى حقائق الوحي فكأنه يعيد ضبطه للمفاهيم والأفكار على مراد الله سبحانه وتعالى.

لكن الإشكالية أننا لا نترك أنفسنا لتلقي هذه الحقائق، فمثلًا تجد الذين يتكلمون عن مذهب الإنسانية، وأنّ الناس كلهم سواء، دون النظر إلى الدين أو العرق أو... أو...، فهم يضعون الدين في منتصف هذه الأشياء، ولكن ربنا سبحانه وتعالى قال للناس: ***أن الناس سواسية، لكن التفاضل يكون بالتقوى***: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}[الحجرات:١٣]، أما الذين على هذا المذهب -الإنسانية- يقولون لك: لا تدخل الدين في الموضوع! فإذًا كيف يقرأون مثل هذه الآيات؟! والعجيب أنهم يستدلون ببعض آيات من القرآن، ولكنها سياسة الانتقاء: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [البقرة:٨٥].

فالذي يترك نفسه مع القرآن، يصل إلى هذه الحقائق تلقائيًا، هناك أثر مروي -بعض أهل العلم ضعفه- عن ابن مسعود أنّه قال: "در مع القرآن حيث دار"، اترك نفسك مع القرآن، وانظر إلى أين سيذهب بك القرآن! أن يعظم أشياء فتعظمها، ويحقّر أشياء فتحتقرها، إن هناك أشياء ترتفع قيمتها عند الناس، لكنها ليست مرفوعة القيمة عندك، لأنّك تتعامل بالموازين القرآنية، فأخبرك الله في هذه الآية: أن كثيرًا من الناس أعرضوا، كما قال ربنا في غير هذه السورة: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}[الأنعام:١١٦].

فالذي لا يجاهد نفسه لتلقي مثل هذه الحقائق، يُصاب أولًا بنوع من الهزيمة النفسية، ثم بعد ذلك تتبدل معتقداته، وتتغير، ويصبح صاحب معتقدات متغيرة عن كتاب الله سبحانه وتعالى، لأنه لم يجاهد نفسه لتلقي مثل هذه الحقائق، و بتعبير فريد الأنصاري رحمه الله: "لم يكابد تلقي هذه الحقائق"، لم يكابدها في قيام الليل بعيدًا عن تأثير وضوضاء وتشغيب الناس. فهي آية واضحة الدلالة: أن الذين أعرضوا عن شرع الله عز وجل: {أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ}، وفي الآية السابقة مباشرة: أن نوعًا من أنواع الأنعام هو الذي بدل شرع الله عز وجل على علم، واختار الشهوات: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ} [الأعراف:١٧٦]، وغيره: الذي أعرض عن شرع الله عز وجل حتى لو لم يتبع الشهوات مثلهم: {كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة:٥].

إذًا قال ربنا تعالى عن هؤلاء: {أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ}، وقال ربنا في أول الآية: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} [الأعراف:١٧٩]، -وهنا إشارة: أن الجن أيضًا مكلفون، وأنّ العصاة منهم يدخلون النار-، فقوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا} [الأعراف:١٧٩]، أي لهم قلوب لكن لم يستعملوها، فالله عز وجل لم يظلمهم، ولكن أعطاهم الأدوات: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان:٣]، {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا..} [الإنسان:١] **أي**: الأول: {لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا}، ثم بعدها أصبح {نُطْفَةٍ}، ثم {أَمْشَاجٍ}، ثم {نَبْتَلِيهِ}، ثم: {فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الإنسان:٢]، أي أعطاه الله عز وجل السمع والبصر، ثم: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ} [الإنسان:٣]؛ حتى يختار، وكذلك: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد:١٠].

فالله عز وجل علّمه: أن له أن يختار هذا، أو ذاك، لكنه اختار بإرادته والعياذ بالله طريق الضلال: {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى} [الليل:٨] هو الذي أخذ القرار، وكذلك: {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء:١١٥] هو الذي أخذ القرار وترك سبيل المؤمنين وابتعد عن طريق النبي صل الله عليه وسلم، لذلك قال الله: {نوله ما تولى} [النساء:١١٥].

فهم لهم قلوب لكنهم لم يتفكروا في آيات الله، وكانت الأدوات موجودة، لكنهم أعرضوا عن استعمالها، فتنتكس بذلك فطرهم، لذلك قال ربنا سبحانه وتعالى أيضًا: {وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ} [الأعراف:١٧٩]، أي: لهم آذان ولكن لا يستعملوها في سماع آيات الله.

وقال ربنا في موضع آخر: {وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا}[الكهف:١٠١]، ***فالإنسان في البداية: هو الذي يختار ويريد ألا يسمع، ثم بعد ذلك: يُعاقَب بأنه لا يستطيع السماع***، وهذا أحد التوجيهات لقراءة: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف:٣٦]، ويعش بفتح الشين وبضمها، ومعناها أن الإنسان في البداية يتعامى عن رؤية الآيات، وهو الذي لا يريد أن يرى، ويقلد الأعشَى، فيدّعي عدم رؤية الآيات، وكأنه لا يراها، حتى يُصاب بالعشى حقيقة، أي: العشى في رؤية الآيات، فلا يرى الآيات واضحة جلية.

في البداية: الإنسان يُعرض، ويستمر في الإعراض؛ فيكون العقاب كما قال ربنا: {نوله ما تولى}[النساء:١١٥]، {فسنيسره للعسرى}[الليل:١٠]، فقد اخترت مرة واثنتين وثلاث فتحمل نتيجة اختيارك: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام:١١٠]، أي يقلّب القلب والعياذ بالله، ففي البداية يرفض المرء السماع بإرادته، ثم بعد ذلك لا يستطيع أن يسمع الآيات، ولا يستطيع أن يبصرها.

فحريّ بالإنسان أن يبادر قبل أن يحول الله عز وجل بينه وبين قلبه؛ يبادر بالطاعة، ويستجيب لله ولرسوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال:٢٤].

قال بعضهم: "عرفت الله في فسخ العزائم"! أي أن تنوي شيئًا ثم تؤجله مرة واثنتين وثلاث، ثم تُفسخ العزيمة، ولذا يقولون: "إذا هبت رياحك فاغتنمها"، فقد تُفسَخ العزيمة لأنك أعرضت، ويكون هذا عقابًا لك على هذا الإعراض والعياذ بالله.

{وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ} [الأعراف:١٧٩]، **لماذا شبهوا بالأنعام؟!** لأن الأنعام لا تفكر فيما وراء المادة، وتأكل وتشرب فقط، ولا تسأل نفسها لماذا! من الذي أطعمها؟! من الذي سقاها؟! ما المطلوب منها من عبادات؟! ومن طاعات؟! لا تفكر في هذا، فهو أصبح فعلًا كالأنعام!

لذلك قالوا أن الأنعام تتقن البحث عن الرزق، مثل النمل والنحل، فكذلك هو يتقن البحث عن رزقه، لم يقل أحد أن معنى لا يفقهون أنهم لا يتقنون البحث عن الرزق، لكنهم لا يفكرون في طاعة الله، لذلك لما قال الله عز وجل: {أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ}، جاء بعدها حرف الإضراب "بل" {بَلْ هُمْ أَضَلُّ}، لأن الطاعة ليست مطلوبة من الأنعام، فالأنعام مسخّرة، بل إنها تعرف ربها ولكنها مسخّرة، لم تحمّل الأمانة، ولم تقع عليها أمانة الاختيار، لذلك قال ربنا عز وجل: { أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ}.

الكلب ليس مذمومًا، والحمار ليس مذمومًا، والحيوانات ليست مذمومة، لكن هؤلاء لما تشبهوا بالأنعام وأعرضوا عن نِعم الله عز وجل عليهم وقد كرمهم الله: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}[الإسراء:٧٠]، فتركوا هذا التكريم، ونزلوا إلى أسفل السافلين، فأصبحوا مذمومين والعياذ بالله، لذلك قال ربنا عز وجل: { أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ }[الأعراف:١٧٩]، لا يفكر في أي شيء إلا في طعامه وفي شهوته.

إذاً عندما تقوم حضارات الآن في العالم على الشهوات فقط، فهؤلاء تنطبق عليهم هذه الآية: { أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ }، لابد أن يكون عندك يقين في هذا، حتى لو رأيت المسلمين الآن متخلفين دنيويًا، ومطالَبين أن يتقدموا ويقودوا الركب مرة أخرى، فهذا تقصير من أهل الإيمان، لكنّه ليس مزيّة عند الكفار.

فلا يتوهم أحد بأنه ما دام عند الغرب كذا وكذا من النعيم فهم على صواب، لا ليس الأمر كذلك، بل قد خسروا الشيء الأعظم! فإنسان متفوق دنيويًا ولكنه كافر بالله، يدخل جهنم، هذه هي المعادلة الصحيحة.

لذلك لما حدث جدال ونقاش عند موت ستيف جوبز –فقالوا أنه يجب أن يدخل الجنة–، وهو رجل مشهور كان يقدم أعمالًا جيدة، لكنها للدنيا فقط، بينما هو كافر بالله الذي خلقه، فجاء البعض يقولون نتمنى أن يدخل الجنة! كيف يدخلها وقد كفر بخالقه وخالق الجنة وخالق كل شيء؟! أيدخلها بواسطة؟!

رجل لا يؤمن بها، ولم يعمل لها، ولم يتحرك لأجلها، ولم يلتجئ إلى خالقها –خالق الجنة– الرب سبحانه وتعالى، فعلى أي أساس تريدون أن يدخل الجنة؟! من شدة تعظيم الناس للدنيا يستخسرون أن يعمل فيها أحد أعمالًا خيرية ثم يدخل النار.

مثل رجل يسير في الطريق، فرأى سيارة تصطدم بسيارة أخرى فتُحدث بها تلفًا، فلا يهتم كثيرًا للأمر لأنها سيارة قديمة، وتجد نفس الشخص لو كانت السيارة أحدث إصدار وتلقت نفس الصدمة وحدث بها نفس التلف، تجده يحزن ويأسف لما حدث، وتراه متأثرًا جدًا، لماذا؟! يستحسر أن تُخدَش هذه السيارة الحديثة الباهظة الثمن، وهو قد يكون لا يمتلك سيارة من الأساس! لكنه التعظيم للدنيا.

من الأمثلة أيضًا عندما يلقي أحد الشيوخ أو الوعاظ محاضرة عن حقارة الدنيا، تجد من يجلس متضجرًا متضايقًا، مع أنه من الممكن أن يكون مقصرًا جدًا في الدنيا ولا يمتلك من الدنيا إلا القليل، لكن لسان حاله يقول لا أسمح لك أن تتكلم عن الدنيا هكذا، فهو أصبح عبدًا لها: (تعس عبد الدينار..)[٣]، فلا يسمح لك أن تتكلم عن الإله هكذا! تقول له يا أخي! أنا لم أتركها وأعمل كذا وكذا.. لكنه التعظيم للدنيا.

وعندما تخبره بأن الله عز وجل قال عنها جناح بعوضة، تجده يجادلك ويتعلل بتفسير خاطئ أو بحديث ضعيف، كل هذا لأنه عظّم أشياء هي في شرع الله عز وجل حقيرة، فمن يترك نفسه لمعايير الناس يضيع.

❖ غذاء الروح

والحل في رجوع الإنسان إلى كتاب الله عز وجل، وأن يقوم به بالليل، فيجدد هذه المعاني، ويضبط القلب والعقل والفكر على مراد الله سبحانه وتعالى، فقال ربنا عنهم: {.. أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ} [الأعراف:١٧٩]، أي الذين أعرضوا ولم يتفكروا في آياته، ثم قال ربنا سبحانه وتعالى –والغفلة ذكرت قبل ذلك ثم في ختام السورة–: {وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ} [الأعراف:١٨٠]

بعض أهل العلم حاولوا أن يبحثوا عن علاقة بين هذه الآية والآية السابقة، فقال كثيرٌ منهم أن السبب الرئيسي لهؤلاء الذين أصبحوا من الغافلين، وأصبحوا كالأنعام، ولم يستعملوا القلوب والأبصار والآذان والأعين، كونهم أعرضوا عن ذكر الله عز وجل، وأعرضوا عن أسمائه وصفاته، ولم يتفكروا في خلقه، ولم يلهجوا بحمده والثناء عليه، فلما أعرضوا عن ذكره سبحانه وتعالى دخلوا في الغفلة، ولما دخلوا في الغفلة

[٣]- [عن أبي هريرة:] تعِسَ عبدُ الدِّينارِ، وعبدُ الدِّرْهَمِ، وعبدُ الخميصَةِ، تعِسَ وانتَكَسَ وإذا شِيكَ فلا انتَقَشَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح ابن ماجه ٣٣٥٣ • صحيح • أخرجه البخاري (٢٨٨٧) باختلاف يسير، وابن ماجه (٤١٣٦) واللفظ له

سيطرت على قلوبهم الدنيا، ولما سيطرت الدنيا على القلوب: {أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [الأعراف:١٧٦].

لأن الإنسان مخلوقٌ مكونٌ من روح –نفخة من روح الملك سبحانه وتعالى–، وجسد من طين، غذاء الجسد من الطين في شهوات الطعام والشراب وغيرها، أما الروح بما أنها نفخة من الملك سبحانه وتعالى، فكذلك لا يكون غذاؤها إلا من عنده، فغذاء الروح هو الكلام الذي تكلم به الرب سبحانه وتعالى حقيقة، فلذلك تتغذى الروح بكلامه.

فلمّا لم يطعم الإنسان روحه، ولم يتركها تأكل من أي شيء من الغذاء الروحي، حبسها، ولم يعمل بقول ربه تبارك وتعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس:٩,١٠]، تصبح روحه مغطاة مختبئة لا تسمع الوعظ ولا تسمع القرآن، وبالتالي تصبح هزيلة ضعيفة، والبدن يتغذى بالشهوات وبالطين فيزداد غذاؤه عن الحاجة ويصير ثقيلا، فعندما تحدث المنازعة بين الروح والجسد، يفوز الجسد، الروح تريد أن ترتقي إلى أعلى، إلى عليين، إلى الأعمال الصالحة: {وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} {فاطر: ١٠}، والجسد يريد الشهوات.

فهذا الرجل سواء كان عالم بني إسرائيل أو غيره، الذي أوتي الآيات فأعرض عنها، أعرض عن غذاء روحه فأصبح جسده ثقيلًا فأخلد إلى الأرض، فكذلك هؤلاء أصبحوا كالأنعام، وأهملوا غذاء الروح، اختاروا الأرض.

فبداية الخلود للأرض كما قال ربنا سبحانه وتعالى: {مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ} [التوبة:٣٨] أصبح ثقيلًا، لماذا؟! ***ما الذي يثقله عن الطاعات؟! لأن الروح ضعيفة، الذي يجذب الجسد للطاعة هي الروح، فلما تتغذى الروح كثيرًا تصبح قوية***، عندما يكون غذاء الروح على الأقل مساويًا: (ساعة وساعة)[٤]، أو أعلى من غذاء البدن فتكون الروح هي الأقوى، هي التي تجذب البدن للطاعة، "وتتعب في مرادها الأجسام"، الروح صاحبة أمنيات علوية لا تريد أن تخلد إلى الأرض، لذلك قال ربنا: { اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ}[التوبة:٣٨]، **أي** أصبحوا مكبلين، لذلك يأتي لفظ {مُحَرَّرًا}

[٤] رواه مسلم

[آل عمران: ٣٥] في القرآن ، أي يكسر هذه القيود الأرضية، ويجعل الإنسان محرراً منطلق، (كلما سمع هيعةً أو فزعةً طار إليها)، كما في صحيح مسلم[٥]، طار إليها لأنه محرر ليس ثقيلًا.

عندما تقارن بين: (كلما سمع هيعةً أو فزعةً طار إليها..) وبين: {اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ}[التوبة:٣٨]، الحديث: (طوبى من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة أو فزعة طار إليها يبتغي الموت أو القتل في مظانه)، **في الحديث**: الروح قوية والبدن خفيف، **وفي الآية**: الروح هزيلة ضعيفة والبدن ثقيل، فلم تستطع الروح أن تجذب البدن.

فقالوا أن بداية هذه المنظومة كلها، والخلود إلى الأرض والتثاقل، أن يُعرض الإنسان عن ذكر الله، عن غذائه، لذلك جاءت الآيات في ختام سورة الأعراف في الآية قبل الأخيرة أمر بذكر الله: {وَاذْكُر رَّبَّكَ ..... وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ}[الأعراف:٢٠٥]، ***لأنك لو تركت الذكر ستدخل في دائرة الغفلة، ومن الممكن*** والعياذ بالله أن يصل الإنسان إلى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ}[الأعراف:١٧٩]، لأنه لم يستعمل القلب والعين والبصر والأذن في التدبر في آيات الله سبحانه وتعالى.

{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأعراف:١٨٠]: بعضهم ربطها بالآية السابقة فقال أن هؤلاء الذين ذرأهم الله عز وجل لجهنم والعياذ بالله، ولهم قلوب لا يفقهون بها، هؤلاء الناس سوف يقومون بالتشغيب على أهل الإيمان، لن يتركوا أهل الإيمان وشأنهم، بل سيطعنون في الأسماء والصفات، ويطعنون في شرع الله عز وجل، فربنا عز وجل أمرنا ألا نستمع لهم، ونوقن أن: {ولله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا..}[الأعراف:١٨٠]، ودعك منهم: {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأعراف:١٨٠]، هذه العلاقة،

❖ **فما معنى فادعوه بها؟!**

[٥] - [عن أبي هريرة:] مِنْ خَيْرِ مَعاشِ النّاسِ لهمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنانَ فَرَسِهِ في سَبيلِ اللهِ، يَطِيرُ على مَتْنِهِ، كُلَّما سَمِعَ هَيْعَةً، أوْ فَزْعَةً طارَ عليه، يَبْتَغِي القَتْلَ والْمَوْتَ مَظانَّهُ، أوْ رَجُلٌ في غُنَيْمَةٍ في رَأْسِ شَعَفَةٍ مِن هذِه الشَّعَفِ، أوْ بَطْنِ وادٍ مِن هذِه الأوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلاةَ، ويُؤْتِي الزَّكاةَ، ويَعْبُدُ رَبَّهُ حتّى يَأْتِيَهُ اليَقِينُ، ليسَ مِنَ النّاسِ إلّا في خَيْرٍ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٨٨٩ • **[صحيح]**

قيل: {فَادْعُوهُ بِهَا}؛ هذا أمر مرجعه إلى العقيدة، والعقيدة ليست فقط هي الضوابط التي ندرسها في كتب العقيدة، **هي الإيمان الذي يربط في القلب ويعقد به**، فليس معنى أنك درست كتاب عقيدة – وهذا مهم ولا سيما في الفتن التي نعيشها– أنّك حصّلت الإيمان، فلن تحققه حتى تضبط معتقدك في الشرع، وفي الله، وفي الدار الآخرة، وفي الغيب، فمعنى قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف:١٨٠]، أنها أسماء توقيفية، فلا ننسب اسمًا إلى الله عز وجل إلّا الأسماء التي وردت في الكتاب أو في السنة.

وقيل: {فَادْعُوهُ بِهَا}، أي فسمّوه بها، **وقيل:** {فَادْعُوهُ بِهَا}، أي أن نلجأ إلى الله عز وجل بهذه الأسماء وندعوه بها فنقول: يا رحمن ارحمنا، يا رزاق ارزقنا.

{ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} وكل أسماء الله حسنى سواء أسماء الجمال أو الجلال، {فَادْعُوهُ بِهَا} إذًا الإنسان مطالب أن يرتبط بكل الأسماء الحسنى، أن يعيش معها، فأنت تحتاج إلى كل اسم من أسمائه، تحتاج إلى الرحمن، تحتاج إلى الجبار، تحتاج إلى اللطيف، تحتاج إلى كل هذه الأسماء والصفات، وعلى قدر معايشة الإنسان لهذه الأسماء، على قدر عطاء الله عز وجل له.

لذلك لما كنت تريد طلبًا مهمًا جدًا في حياتك وهو أن يجعل الله عز وجل القرآن ربيع قلبك، وهذا أهم طلب في حياتك، لو تحقق هذا الطلب لصفت لك الحياة، ولن تعيش في غم ولا هم، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا أن ندعو به إذا وجد الإنسان هم أو غم، فبداية هذا الحديث: (اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك)[٦]، أنت محتاج إلى كل الأسماء هنا التي تعرفها والتي لا تعرفها، ليس فقط تسعة وتسعون اسمًا، بل كل الأسماء لأن الطلب هنا خاص: (أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي.)، فعلى عِظم الطلب على قدر حاجتك لهذه الأسماء.

{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا}[الأعراف:١٨٠]: فأنت كي تدعوَ الله بهذه الأسماء الحسنى أنت تحتاج أن تعرفها وتعايشها وتقرأ آثار هذه الأسماء في القرآن، لذلك عندما تنهي المصحف، تقرؤه من

[٦]- اللهمّ إني أسألُك بكلّ اسمٍ هو لك سميتَ به نفسَك أو أنزلتَه في كتابِك أو علمته أحدًا من خلقِك أو استأثرت به في علمِ الغيبِ عندك، أن تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي ونورَ صدري وجلاءَ حزني وذهابَ همّي وغمّي
الألباني (ت ١٤٢٠)، شرح الطحاوية ١٠٨ • **صحيح**

الفاتحة إلى البقرة إلى آل عمران إلى أن تنهي سورة المسد، وبعد ذلك تأتي في ختام المصحف تقول: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}[الإخلاص:١]، نعم، أنت كأنك تراجع ما قرأت وتقول فعلًا كل الصفات والأسماء والأفعال التي قرأتها في القرآن هي لله سبحانه وتعالى، لا يستطيع أن يفعلها إلا الله.

أنت تظل تقرأ في القرآن: الله عزّ وجلّ نجى إبراهيم من النار ونجى يوسف من السجن، وفلق البحر لموسى وأهلك فرعون وأهلك الظالمين، وخسف بقارون وبداره الأرض، وفعل، وفعل، وأعطى، ومنع، وأعز، وأذل سبحانه وتعالى.

طوال القرآن تقرأ، فأنت تراجع أهم معنى تخرج به من القرآن: {اللهُ أَحَدٌ}؛ أحدٌ في أسمائه وصفاته وأفعاله، وبما أن الله أحد إذًا أنا سوف ألجأ إليه فقط، {اللهُ الصَّمَدُ}[الإخلاص:٢]: في حوائجي لن أصمد إلى غيره ليقضيها، حسنًا هل هناك أحد آخر غير الله؟! لا بل: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}[الإخلاص:٣]، حسنًا هل له كفؤ؟! أبدًا! أو معين أو مشابه؟! أبدًا: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[الإخلاص:٤].

بعدما أقرَرْت هذه القاعدة إذًا أستعيذ به لدفع المضار الخارجية: سورة الفلق، والداخلية لدفع الوسوسة: سورة الناس. ***إذًا النتيجة الطبيعية لمعايشة القرآن هي التوحيد***، لذلك ثلث القرآن سورة الإخلاص.

هذه هي النتيجة التي تخرج بها، فهذه هي {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا}[الأعراف:١٨٠] وليس مجرد حفظ الأسماء، لأن في الواقع التسعة وتسعون اسمًا التي في الحديث[٧] فيهم خلاف، لأن كثيرًا من أهل العلم ضعف الحديث الذي في الترمذي. لكن أيّا كان هذا ليس موضوعنا.

المهم معايشة هذه الأسماء، والقرآن خير وسيلة وكتاب يعلمك عن الله، تتعلم فيه عن الله بأسماءه وصفاته سبحانه وتعالى، فمن المهم أن تعطي وقتًا من حياتك لتتعلم عن الله، هذا علم! فتعرف ماذا يعني اسم الله اللطيف، وماذا يعني المقيت، وماذا يعني الصمد؟!

{..وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}[الأعراف:١٨٠]: الإلحاد هو الميل والإعراض، لذلك اللحد في القبر يعني الذي هو يميل، أي شيء مختبئ بميل، فالإلحاد فيه إعراض وميل وتغطية، {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا

[٧] - [عن أبي هريرة:] إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا واحِدًا، مَن أحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٣٩٢ • **[صحيح]**

لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾[فصلت:٤٠]: فالسورة تقول لك أن الآيات مفصلة، فمهما حاولوا إخفاءها فإن الآيات مفصلة، لذلك ختمت فصلت ب: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:٥٣]، فمهما حاولوا تخبئة الآيات ستكون واضحة مفصلة، والفطرة موجودة: ﴿سَنُرِيهِم ءَايَٰتِنَا فِي الآفاقِ وفي أنفسهم حَتَىٰ يتبين لهُم أَنهُ ٱلحق﴾[فصلت:٥٣].

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف:١٨٠] قالوا ما هو الإلحاد في الأسماء؟!

وهذا يتبين في كتب العقيدة، وفي السجال الكلامي في قضايا العقيدة سواء في تأويل الأسماء، أو النفي، أو تعطيل الأسماء والصفات، لكن نذكره هنا كفائدة تربوية، حتى لا نقع في هذه الإشكالية.

فقد تجد رجلًا يلحد في أسماء الله بأن ينكر وجود الله، أو أن ينكر مجموعة صفات من صفات الله سبحانه وتعالى، كأن ينكر وجود القرآن، أي صفة الكلام والقرآن كلام الله سبحانه وتعالى، أو أن ينكر صفة أن الله عزّ وجلّ هو الحكم، لأنه لا يريد أن يتحاكم إلى شرع الله، فهذا من الإلحاد في الأسماء.

أيضًا من الإشكاليات الدقيقة التي من الممكن أن تحدث هنا وليس بالضرورة أن يكون له نفس الحكم الذي هو كافر أو ملحد إلحادًا تامًا، لأن البداية تبدأ أن الإنسان ينتقي الأسماء كما ينتقى الآيات ويخبئ البقية، فلا يريد مثلًا أن يسمع اسم الله المنتقم، أو صفة الله المنتقم –لأن بعضهم قال أن هذا ليس اسم بل صفة–، أو أن يسمع ذو انتقام، أو الجبار، أو المتكبر، أو العزيز، لأن هذه الأسماء ستجعل هناك نوع من الخشية أو الخوف فبالتالي عليه أن يطيع، لكن لا هو يريد أن يسمع فقط عن اسم الله الرحمن، الرحيم، الرؤوف! فقط.

نعم قال ربنا سبحانه وتعالى: (إن رحمتي سبقت غضبي)[٨]، نعم. وأن الدور الأساسي في الدعوة هو أن نحبب الله عزّ وجلّ إلى خلقه لكن ليس لدرجه أن ننسى أن هناك عذابًا، ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الحجر:٤٩]، فعلًا مهم أن ننبيء الناس هذا النبأ العظيم لكن لا ننسى تتمة الآية: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[الحجر:٥٠].

[٨]- [عن أبي هريرة:] لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٤٥٣ • **[صحيح]** • أخرجه البخاري (٧٤٥٣)، ومسلم (٢٧٥١)

نعم بدأ الله بالرحمة وعندما تكلم عن الرحمة وصف ذاته سبحانه وتعالى أنه غفور رحيم لكن قال في التتمة: {وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ}[الحجر:٥٠]، ولم يصف ذاته بل وصف عذابه، قال "عَذَابِي".

نعم الرحمة مقدمة، وإن الإنسان مهما عصى ووقع وأتى بقراب الأرض خطايا فإن الله غافر يغفر الذنوب، لكن أيضًا من فقه السلف في الوعظ وهذا موجود في أكثر من حديث سواء في مسلم أو في البخاري؛ أنه كان يحدث الناس بحديثين حديث الرجل الذي لم يعمل خيرًا قط وقال لأولاده إذا أنا مت فاطحنوني فقام بين يدى الله فغفر الله له ولم يعمل خيرًا قط؛ إلا أنه خشي الله عزّ وجلّ[٩]، ثم يحدث بحديث المرأة التي حبست الهرة ودخلت النار في هرة[١٠]؛ كي يحدث توازنًا.

أو حديث كان ابن مسعود يحدّثه: (لله أفرح بتوبة أحدكم..)[١١] ثم يقول معه: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا،فطار..)[١٢]، بحيث يحدث توازنًا فهذا مهم عندما نأتي لنعرف الناس بالله ونتكلم عن الله مع الناس لابد من الشمول.

{وَلِلَّهِ الأَسماءُ الحُسنىٰ فَادعوهُ بِها}[الأعراف:١٨٠] فمن المهم أننا عندما نتكلم عن الله ألا يكون كلامنا انتقائيا، نعم أحيانًا يكون من فقه الدعوة أن تغلب البشارة وفي موضع آخر تغلب النذارة، ولكننا نتكلم في العموم.

---

[٩] - [عن حذيفة بن اليمان:] إنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ المَوْتُ، لَمّا أيِسَ مِنَ الحَياةِ أوْصى أهْلَهُ: إذا مُتُّ فاجْمَعُوا لي حَطَبًا كَثِيرًا، ثُمَّ أوْرُوا نارًا، حتّى إذا أكَلَتْ لَحْمِي، وخَلَصَتْ إلى عَظْمِي، فَخُذُوها فاطْحَنُوها فَذَرُّونِي في اليَمِّ في يَومٍ حارٍّ، أوْ راحٍ، فَجَمعهُ اللَّهُ فقالَ؟ لِمَ فَعَلْتَ؟ قالَ: خَشْيَتَكَ، فَغَفَرَ له. قالَ عُقْبَةُ: وأنا سَمِعْتُهُ يقولُ: حَدَّثَنا مُوسى، حَدَّثَنا أبو عَوانَةَ، حَدَّثَنا عبدُ المَلِكِ، وقالَ: «في يَومٍ راحٍ»
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٤٧٩ • **[صحيح]**

[١٠] - [عن عبدالله بن عمر:] دَخَلَتِ امْرَأَةُ النّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْها، فَلَمْ تُطْعِمْها، ولَمْ تَدَعْها تَأْكُلُ مِن خَشاشِ الأرْضِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٣١٨ • **[صحيح]** • أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢)

[١١] - [عن أبي هريرة:] للَّهُ أفْرَحُ بِتوبةِ أحدِكُمْ من أحدِكُمْ بِضالَّتِه إذا وجدَها
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٥٠٣٢ • **صحيح** • أخرجه مسلم (٢٦٧٥)، والترمذي (٣٥٣٨) واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٤٧)

[١٢] - [عن الحارث بن سويد:] قال عبدُ اللهِ [ابنُ مسعودٍ]: إنَّ المؤمنَ يرى ذنوبَه كأنه في أصلِ جبلٍ يخافُ أنْ يقعَ عليه وإنَّ الفاجرَ يرى ذنوبَه كذبابٍ وقع على أنفِه قال به هكذا، فطار.
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترمذي ٢٤٩٧ • **صحيح** • أخرجه البخاري (٦٣٠٨) باختلاف يسير، والترمذي (٢٤٩٧)، وأحمد (٣٦٢٩) واللفظ لها.

{وَلِلَّهِ الأَسماءُ الحُسنى فَادعوهُ بِها وَذَرُوا الَّذينَ يُلحِدونَ في أَسمائِهِ}[الأعراف:١٨٠]: أعرضوا عن شرع الله عزّ وجلَّ وأعرضوا عن أسمائه ويريدون أن يخبئوها، أيضًا لا يريدون من المؤمنين أن يسمعوا عن الله يريدون أن يدنسوا فطرهم وأن يغطوها، كما قلنا: {وَقَد خابَ مَن دَسّاها}[الشمس:١٠]، هو يريد أن يغطي الفطرة، والإلحاد: الميل والإعراض.

{وَذَرُواْ الَّذينَ يُلحِدونَ في أَسمائِهِ سَيُجزَونَ ما كانوا يَعمَلونَ}[الأعراف:١٨٠] ثم قال ربنا سبحانه وتعالى هناك فريق يلحد فى الأسماء، وفريق يشغّب على أهل الإيمان، ولكن هناك فريق انتفض للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: {وَمِمَّن خَلَقنا أُمَّةٌ يَهدونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعدِلونَ}[الأعراف:١٨١]

أظن أن الإمام القرطبي قال هنا: أن هناك دلالة أن لابُد أن يكون هناك أناس قائمين بالحق مصداقًا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لاتزال طائفةٌ من أمَّتي يقاتِلونَ على الحقِّ ، ظاهرينَ على مَنْ ناوأَهم ....)[١٣]، فهنا كما أن هناك أناسًا يلحدون في أسماء الله، هناك أناس تُعرّف الناس بالله: {وَمِمَّن خَلَقنا أُمَّةٌ يَهدونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعدِلونَ}[الأعراف:١٨١]، **أي** أيضًا يحكمون بين الناس بالحق، والجمهور على أن يعدلون: أي يعدلون بين الناس بالحق.

وبعضهم قال يعدلون أي يعدّلون أنفسهم بالحق، يعني سواء على المستوى الشخصي أو على المستوى المجتمعي، وقال بعضهم: {وَمِمَّن خَلَقنا} **أي** ممن خلقنا للجنة عكس: {وَلَقَد ذَرَأنا لِجَهَنَّمَ كَثيرًا مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ}[الأعراف:١٧٩]، ثم قال بعدها {وَمِمَّن خَلَقنا} **أي** للجنة، هذا ذكره الإمام القاسمي ثم نسبه للأمام النسفي.

نكرر دائمًا أن من المحاور الأساسية فى السورة هو "التكذيب بالآيات"، فقال ربنا: {وَالَّذينَ كَذَّبوا بِآياتِنا سَنَستَدرِجُهُم مِن حَيثُ لا يَعلَمونَ ○ وَأُملي لَهُم إِنَّ كَيدي مَتينٌ}[الأعراف:١٨٢,١٨٣] فهم أعرضوا عنها ولم يستعملوا قلوبهم وأعينهم وأذانهم.

وقضية الاستدراج: كما قلنا أن المرء في البداية يكون غير مريدًا للسماع، ثم بعد ذلك يعاقب بأن يحرم من السماع، لا يريد أن يمشي في طريق شرع الله سبحانه وتعالى وفي طريق الخير، ثم يعاقب بأنه يمنع من

---

[١٣]- [عن عمران بن الحصين:] لاتزال طائفةٌ من أمَّتي يقاتِلونَ على الحقِّ ، ظاهرينَ على مَنْ ناوأَهم ، حتى يقاتلَ آخرُهم المسيحَ الدجالَ.
الألباني (ت ١٤٢٠)، تخريج مشكاة المصابيح ٣٧٤٣ • **صحيح على شرط مسلم**

السير في طريق الحق، وهذا يأتي عن طريق الاستدراج. فعالم بني إسرائيل مثلًا تم استدراجه، فهو أعرض عن شرع الله واختار الدنيا.

قالوا أن الاستدراج يأتي من كلمة الدرج درجة درجة، مثل (سلمة سلمة)، أو من الشيء الذي يخفى مثل الدرج، فقالوا: سنستدرجهم؛ أي خطوة بخطوة. يعني ذلك والعياذ بالله أن ليس بالضرورة أن يسقط الإنسان مرة واحدة، وهذا الأصل: {وَلا تَتَّبِعوا خُطُواتِ الشَّيطانِ} [البقرة:١٦٨]، فالإنسان لو ترك نفسه يستدرج كما بالضبط في أول سورة الأعراف في قصة سيدنا آدم مع الشيطان، وكيف أنه حاول أن يوقعهما شيئًا فشيئًا: {فَدَلّاهُما بِغُرورٍ}[الأعراف:٢٢]، وذكرنا أن التدلية أن تنزل الدلو في البئر خطوة بخطوة، فهكذا بالضبط سنستدرجهم؛ بأن ينزلوا درجة في المعصية، وبداية نزوله درجة –قالوا هذا من معاني الاستدراج– تأتيه نعمة فيقول ما هذا؟! المعصية لم تكن تمنع النعم! فينزل إلى المعصية التي تليها، والنعمة تزداد أكثر، مثل من اصطاد في السبت: {تَأْتيهِمْ حِيتانُهُمْ}[الأعراف:١٦٣]، وهذا استدراج من الله لهم؛ يصطاد فتأتي الحيتان أكثر، فيصطاد أكثر، ولا تنزل العقوبة، فيستمر: {سَنَستَدرِجُهُم مِن حَيثُ لا يَعلَمونَ} [الأعراف:١٨٢].

وهناك أثر مروي عن النبي ﷺ: (إذا رأيتَ اللَّهَ تعالى يُعطي العَبدَ مِنَ الدُّنيا ما يُحِبُّ وَهُوَ مقيمٌ على معاصيهِ فإنَّما ذلِكَ منهُ استدراجٌ)[١٤]، لذلك هذه النقطة مهمة لفهم سنن ربنا في معاملة الخلق، وقد تحدثنا قبل ذلك أكثر من مرة عن قضية أن السنن تعمل مجتمعة، لذلك فلا يأتِ أحد **ويقول**: كيف توجد آيات في القرآن بأن الإنسان ممكن أن يعاقب بالذنوب فيحرم النعم، وأن الله عزّ وجلّ بالإيمان والتقوى قد يفتح البركات، فكيف إذًا يكون عند الكفار نعم والمؤمنين في ابتلاءات؟! **والجواب**: نعم، لكن هناك سنة أخرى، والسنن تعمل مجتمعة، وأنت تحتاج فهمًا كليًا للنصوص، فتجمع النصوص كلها في المسألة الواحدة.

وقد قال لنا الله والرسول صلى الله عليه وسلم أن من الممكن أن يكون هناك رجل مقيم على المعصية ويكون في نعمة، لكن يكون هذا له بلاء: {فَأَمَّا الإنسانُ إذا مَا ابتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقولُ رَبّي أَكرَمَنِ*وَأَمّا إذا مَا ابتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيهِ رِزقَهُ فَيَقولُ رَبّي أَهانَنِ*كلا}[الفجر:١٥-١٧] الفهم هذا خاطئ.

[١٤]- [عن عقبة بن عامر:] إذا رأيتَ اللَّهَ تعالى يُعطي العَبدَ مِنَ الدُّنيا ما يُحِبُّ وَهُوَ مقيمٌ على معاصيهِ فإنَّما ذلِكَ منهُ استدراجٌ
السيوطي (ت ٩١١)، الجامع الصغير ٦٢٥ • **حسن**

كما قال سبحانه في سوره مريم: {وَإِذا تُتلى عَلَيهِم ءَايـٰتُنا بَيِّنـٰتٍ قالَ الَّذينَ كَفَروا لِلَّذينَ آمَنوا أَيُّ الفَريقَينِ خَيرٌ مَقامًا وَأَحسَنُ نَدِيًّا}[مريم:٧٣]، **أي** نحن أكثر منكم مالًا إذًا نحن من على الحق، لأن معيارهم الذي يقيمون به الأمور معيار دنيوي، فربنا سبحانه وتعالى قال أن هذا استدراج: {سَنَستَدرِجُهُم مِن حَيثُ لا يَعلَمُونَ}[الأعراف:١٨٢]، ينزل المرء شيئًا فشيئًا -والعياذ بالله- وكما قلنا فإن الله يجعل لهم هذا الطريق إلى المعصية ميسرًا: {نُوَلِّهِ ما تَوَلّىٰ وَنُصلِهِ جَهَنَّمَ}[النساء:١١٥].

{وَأُملي لَهُم}[الأعراف:١٨٣] والإملاء: طول الفترة في النعمة مع الإقامة على المعصية، وقالوا أن الإملاء من الملاوة أو الملوان؛ الذي هو الليل والنهار، والملاوة: هي المدة الطويلة.

لذلك قالوا في قول الله سبحانه وتعالى: {وَاهجُرني مَلِيًّا}[مريم:٤٦]، **أن هناك قولين**؛ القول الأول والأشهر: **أي** اهجرني طويلًا، أي أن والد إبراهيم عليه السلام قال: {وَاهجُرني مَلِيًّا}، **أي** ابعد عني فترة طويلة، وقيل: {وَاهجُرني مَلِيًّا} الملي من المليء تأتي بمعنى شخص سليم غني، يعني: ابعد عني وأنت سليم فذلك أفضل لك، بدلًا من أن أرجمك، واهجرني سليمًا بدلًا من أن أُعاقبك بأذى؛ باللسان أو بالبدن.

لكن القول الأشهر أن مليًا تعني اهجرني فترة طويلة من الزمان، فهنا معنى: {وَأُملي لَهُم}[الأعراف:١٨٣]؛ **أي** أتركهم فترة طويلة، لذلك عندما يأتي أحد ويقول: لكن لم الدولة الكافرة ما زالت سنين وسنين ولم تهلك؟! لكن السنين تلك في عمر من؟! هي في عمر البشرية لا شيء! يعني أنت من الممكن أن تستعظم أن دولة مثلًا مقيمة على الكفر لمئة سنة وما زالت، وأنها متروكة بلا عقاب، وأن من الواضح أننا نحتاج أن نراجع تفكيرنا! أبدًا!

هذه المدة في عمر الحضارات لا شيء! من الممكن أن تستمر حضارة لمئات السنين، فسيدنا نوح لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا. فلا يتعجل الإنسان بنزول العذاب، وكيد الله متين: { وَأُملي لَهُم إِنَّ كَيدي مَتينٌ}[الأعراف:١٨٣]، فإذا أخذه الله عزّ وجلّ لم يفلته! الله عز وجل يمكر بهم ويحيط بهم {وَأُحيطَ بِثَمَرِهِ}[الكهف:٤٢] ولن يستطيعوا أن يفلتوا إذا نزل بهم العذاب، { إِنَّ كَيدي مَتينٌ}

ثم قال سبحانه وتعالى لهؤلاء الذين عطلوا القلوب والأعين والآذان: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ}[الأعراف:١٨٤]؛ ***والتفكر أتى في شيئين: في دلائل النبوة، وفي خلق الله سبحانه وتعالى***، لذلك فالإنسان حقًا حتى ينتقل للإسلام فعليه أن يتفكر في وجود الرب، وفي آياته المبثوثة في الكون، فيعتقد بوجود الرب، ثم بعد

ذلك يتفكر في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، فيصبح مسلمًا، فتلك الآيتان المتتابعتان اللتان تحضان على التفكر: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا.....(١٨٤)}، {أَوَلَمْ يَنظُرُوا.....(١٨٥)} التفكر والنظر ممكن أن ينقلا الإنسان من أن يلحد وينكر وجود الله، إلى الايمان بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ}[الأعراف:١٨٤]: **أي** أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس به جنون، وسماه صاحبهم لأنهم يعرفونه عن قرب، فهو عندهم الصادق الامين، وحتى أنه ولآخر لحظة وهذا أمر عجيب جدًا، وهي لحظة هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، حينما ترك علي بن ابي طالب رضي الله عنه في مكة، لم تركه في مكة؟ ليرد الأمانات لأصحابها.

فهم لآخر لحظة هم يحاربونه ويضعون الأمانات عنده، تخيّل! مع كونهم رفضوا الطاعة لله سبحانه وتعالى، لذلك هم من الممكن أن يمدحوك أنت كشخص، لكن إن تكلمت عن الله يقولون لك: لا، {قالوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا}![هود:٦٢] {قَدْ كُنتَ فِينَا}: أي أنت كشخص، من الممكن أن نعطيك الوظيفة التي تريدها، إنما أن تقول لنا: ربنا وطاعة وحاكمية لله! لا، لا نريد أن نسمع كلامًا كهذا.

فقال ربنا سبحانه وتعالى: {مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ}[الأعراف:١٨٤]، يروى عن قتادة أثرًا مرسلًا أنّه قال –وكونه تابعي فلم يصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم–: إن من أسباب نزول هذه الآية أنه حينما نزل القرآن وأمر الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم أن يحذر قومه من النار، وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قبيلة قبيلة، لينادي على كل فخذ من القبائل بأسمائها: يا بني فلان، يا بني فلان، إنّي أحذركم من النار!

وقف النبي صلى الله عليه وسلم معليًا صوته صلى الله عليه وسلم حتى الصباح! انظر جهد النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة! وقف يعلي صوته حتى الصباح فقالوا أنه مجنون! تخيّل جهده في دعوتهم ثم يقولون مجنون! فنزلت هذه الآية: {ما بِصاحِبِهِم مِن جِنَّةٍ}[١٥]، ما يفعله هو النذارة: {إِن هُوَ إِلّا نَذيرٌ مُبينٌ}[الأعراف:١٨٤].

[١٥]- [عن قتادة بن دعامة:] ذكر لنا أنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ كان على الصَّفا، فدعا قريشًا فجعل يفخَذُهم فخِذًا فخِذًا: يا بني فلانٍ، يا بني فلانٍ، فحذَّرهم بأسَ اللهِ ووقائعَ اللهِ، فقال قائلُهم: إنَّ صاحبَكم هذا لمجنونٌ. بات يصوِّتُ إلى الصُّبحِ، أو: حتَّى أصبحَ، فأنزل اللهُ تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلّا نَذِيرٌ مُبِينٌ}

{أَوَلَم يَنظُروا في مَلَكوتِ السَّمٰواتِ وَالأَرضِ وَما خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيءٍ وَأَن عَسىٰ أَن يَكونَ قَدِ اقتَرَبَ أَجَلُهُم فَبِأَيِّ حَديثٍ بَعدَهُ يُؤمِنونَ}[الأعراف:١٨٥]: **هنا مطالبين بالنظر في ثلاثة أشياء:**

* ملكوت السماوات والأرض أي الملكوت العام.

* ثم التفصيل الدقيق: { وَما خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيءٍ} **أي** يتفكروا في كل شيء بدقة بعد النظر العام في الملكوت.

* ثم تحدثت الآية عن دنو الأجل وعن قضية الموت، وأن الإنسان مهما بلغ من علم لن يجد علاجًا للموت، (ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء)[١٦]،(في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السأم ... أي الموت)[١٧] ،{وَأَن عَسىٰ أَن يَكونَ قَدِ اقتَرَبَ أَجَلُهُم}[الأعراف:١٨٥].

الإنسان حينما يتفكر في هذه الأمور الثلاثة: ملكوت السماوات والأرض، وتفاصيل ودقة كل الأشياء، وأن هناك شيء اسمه الروح ينزع من الإنسان غصبًا عنه ولو بدون سبب إذا جاء الأجل، حينما يتفكر في هذه اللحظة لابد حتمًا أن يصل إلى صحة نبوة النبي ﷺ، **ما العلاقة بين هاتين الآيتين؟!** نحن قلنا أوجه العلاقة منها: أن التفكر في خلق السماوات والأرض ينقل الإنسان من أن يكون ملحدًا إلى أن يؤمن بوجود إله، ثم التفكر في دلائل نبوة النبي ﷺ، وصحة القرآن، والتحدي بالقرآن ينقلانه من الإقرار بوجود إله إلى الإسلام، بدلًا من أن يعترف بوجود إله ويسير على دين باطل، لا، هذا الذي يتفكر في خلق السماوات والأرض يصل إلى الإسلام.

أيضًا من الترابط بين الآيتين: وهذه كانت فكرة محاضرة «ماذا لو غابت السنة»، أنّك لن تستطيع أن ترضي الله عزّ وجلّ، ولا أن تسير على مراده بدون رسول يوضح ويبين لك تفاصيل هذه الرسالة التي نزلت في القرآن، فأنت تريد أن تعبد ربنا، لكنك تريد أن تعرف تفاصيل عبادته، لذلك قال ربنا سبحانه وتعالى: {قُل إِن كُنتُم تُحِبّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعوني يُحبِبكُمُ اللَّهُ}[ال عمران:٣١].

أحمد شاكر (ت ١٣٧٧)، عمدة التفسير ٨١/٢ • **[أشار في المقدمة إلى صحته]**

[١٦] - [عن أبي هريرة:] ما أَنْزَلَ اللَّهُ داءً إِلَّا أَنْزَلَ له شِفاءً.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٥٦٧٨ • **[صحيح]**

[١٧] - [عن أبي هريرة:] فِي الحَبَّةِ السَّوْداءِ شِفاءٌ مِن كُلِّ داءٍ، إلّا السّامَ
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٥٦٨٨ • **[صحيح]** • أخرجه البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم (٢٢١٥)

إذًا يجب أن يكون أمامك خط سير حي تسير خلفه، لذلك وظيفة الرسالة...، فلو أتى أحد وتدبر في ملكوت السماوات والأرض، وقال لا وجود لرسول، فيكون بذلك ملكوت السماوات والأرض جاء عبثًا! ولا يعقل أن الله خلق السماوات والأرض والملكوت في قمة الدقة والإحكام ومن ثم لم يطلب منا أي شيء! أي خلقنا عبثًا، والناس تموت وطبيعي ألا يحاسبون، والذي ظلم في الدنيا، والذي قتل، والذي سرق لا يحاسبون! أيعقل هذا؟! أن يكون هناك دقة رهيبة في الكون لكن حياة الناس تكون عبثًا؟! لذلك ربطت بعثة النبي ﷺ وأهمية وجود الرسالة بدقة وإحكام السماوات والأرض.

إذًا: {وَأَن عَسى أَن يَكونَ قَدِ اقتَرَبَ أَجَلُهُم فَبِأَيِّ حَديثٍ بَعدَهُ يُؤمِنونَ}[الأعراف:١٨٥]، أي لن تغني عنه الآيات الكونية ولا التفاصيل ودقة المخلوقات ولا الخوف من الموت ولا رسالة النبي ﷺ، الذي لن يؤمن بهذه الأشياء لن يغني عنه أي شيء: {فَبِأَيِّ حَديثٍ بَعدَهُ يُؤمِنونَ}[الأعراف:١٨٥].

ففي ختام السورة التي من **المحاور الأساسية** التي تحدثت عنها قضية الآيات، أن المعرض الرافض للآيات لن تجدي معه أي آية مهما كانت عيانًا جهارًا أمامه، فالذي لن يؤمن على ما جاء طول السورة: {فَبِأَيِّ حَديثٍ بَعدَهُ يُؤمِنونَ}[الأعراف:١٨٥].

****

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد ﷺ.

إذًا يخبرنا الله عزّ وجلّ أن المعرض عن هذه الآيات لن تملك له من الله شيئًا: {وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتنَتَه فَلَن تَملِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيئًا}[المائدة:٤١]، لذلك كان بعض أهل الإيمان في زمان نزول القرآن، والقرآن ينزل تترى وآيات بينات واضحات معجزة، والتحديات متتالية، كان بعض أهل الإيمان يتمنى أن يكون هناك آيات حسية، وكان أهل الشرك يطلبون آيات حسية، وكان بعض أهل الإيمان معتقدًا ويظن كما قال لهم ربنا سبحانه وتعالى: {وَما يُشعِرُكُم أَنَّها إِذا جاءَت لا يُؤمِنونَ}[الأنعام:١٠٩]، فهم أيضًا لو جاءت لا يؤمنون لكنهم كانوا معتقدين أن لو كان هناك آية حسية واضحة فسيؤمنون، لا، إنه كلما رأى آية حسية سيُأولها، ويقول إن هذا حدث بسبب ذلك، وهذه بسبب كذا، مثل الآن.

وهذه **إشكالية الآن** في التعامل وخاصة المذهب المادي التجريبي الذي يريد أن يفسر كل شي نتيجة الأسباب، ويتهمنا ويقول لك: أنتم لديكم إله الفجوات، وأنتم تنسبون أشياء لربنا ووو.. النقاش الإلحادي الشهير.

فتقول له: حسنًا ما الذي لو رأيته ستقتنع؟! هو إن رأى أي شيء حتى لو كان معجزة، سيقول لك: نحن سنكتشف ذلك مستقبلًا!

أي أن العلم مستقبلًا سيكتشف كيف حصلت هذه المعجزات، وتلك إشكالية رهيبة أصلًا، أي هذه أصبحت إشكالية في الإعراض، لذلك من لم تجعله الفطرة التي بداخله يبحث عن عظمة خلق السموات والأرض وأن يكون خائفًا من أن من الممكن أن يكون هناك إله، ولا يبحث ويشعر بفطرته أن هناك أشياء خاطئة لا يجب أن يفعلها، ولا يبحث عن الدين الحق، الذي لا يفعل ذلك هذا الشخص لن تصل معه إلى شيء، لذلك حتى في النقاش صارت "موضة" كون صديقي فلان ملحد -بالرغم من كونه إلحاد نفسي- فنصيحتي لك ***ألا تتناقش مع المعرض، إلا أن تكون مؤهلًا، فتستطيع إفحامه أمام الناس، فلا تناقشه إلا إذا دعاك هو إلى النقاش، فالنقاش عادةً لا يجدي المعرضين عن الآيات الواضحات المتتاليات، ولكن ابحث له عن وسائل أخرى للدعوة.***

ومن ثَمّ قال الله لك بعدها: {مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ}[الأعراف:١٨٦] انتهى الأمر؟! لا بل: {وَيَذَرُهُمۡ}، فهؤلاء يُترَكون: {فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ}، فلقد اعتقد أنه يملك كلَّ شيء، فوصل إلى حالة من الطغيان: {أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ}[العلق:٧]، {فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ}[الأعراف:١٨٦]، فهو مُتَردد ومُتَحير، والعمه يختلف عن العمى.

وبعد هذا الخطاب طوال السورة ما النتيجة التي خرج بها المعرض؟! خرج بسؤال: {يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ}[الأعراف:١٨٧]، وهذا السؤال دليل على عدم تأثره بكل ما جاء في السورة! فلو كان تأثر لسأل كيف يصل لربِّه أو كيف يُرضي ربه، ولسيد قطب كلامٌ جميلٌ في هذا الصدد عن أسئلة لا يسألها مؤمنٌ جادٌّ ولا يسألها ملحدٌ جادٌّ، ولكن لا يسألها إلا من أراد الاستهزاء أو الدلال، أو أراد الهروب من طاعة الله، أو ملحدٌ مستهزئ.

فلو عرفت متى الساعة، فحينئذٍ لا داعي للاختبار، أو أن يقول لك أنه سيؤمن أو لديه استعداد للإيمان بشرط أن يرى الله جهرة، أين الاختبار؟! {لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً} [البقرة:٥٥]، فهذه النوعية من الأسئلة هي أسئلة فاسدة تمامًا كسؤال: من الذي خلق الله؟! فالله هو الذي لم يُخلَق أي الذي: {لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ} [الإخلاص:٣]، فسؤال من خلق الذي لم يخلق؟ هذا السؤال فاسد، لذا أُمِرنا كمؤمنين بالإعراض عنه في النقاش، وإذا جادلته فلتُفهِمه أن هذا السؤال مغلوط، مثلًا مثله مثل سؤال: ما لون الكيلو! فلا توجد إجابة للسؤال المغلوط، وتلك الأسئلة هي التي حوّلت العقائد إلى جدال باهت، واستمرارك معه في هذا الجدال سيحوّل قضية الدعوة إلى جدالاتٍ باهتة.

{يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ} [الأعراف:١٨٧] ، فكانت الإجابة: { ۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةً} [الأعراف:١٨٧]، فكانت الإجابة بنقل السؤال عن متى الساعة إلى أنها ستأتي وسيكون الأمر ثقيلًا وصعبًا، وستأتي بغتة، لكن الجدال حول سؤاله لن يُجدي لأنه مُعرِض.

{يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ} [الأعراف:١٨٧]، **أي** وقوعها وثبوتها، فكأن الزمان يجري ليرسو عند الساعة. { ۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ} [الأعراف:١٨٧]، ستكون هذه الإجابة كافية إذا كنتَ في محل جدال، لكنَّك في محل وعظ: {لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ} [الأعراف:١٨٧]، **أي** لا يظهرها في الوقت المحدد إلا هو، فهي من التجلية.

{ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ} [الأعراف:١٨٧]، قيل أن هناك محذوفٌ إما تقديره: "ثَقُلَ علمها" على أهل السماوات والأرض أي لا يعلمها أحد من أهل السماء والأرض، وكلهم مشفقون منها، أو تقديره: "ثقل وقوعها"، أي سوف تقع الساعة وتكون ثقيلة على السموات والأرض فتنشق الأرض وتخر الجبال وتُبدَّلُ الأرض غير الأرض والسموات، أو أن "ثقلت" أي وقوعها ثقيلٌ على أهل السموات والأرض فالكل خائفٌ مشفقٌ. فإما العلم أو الوقوع.

{لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةً} [الأعراف:١٨٧]، ***من طبيعة الامتحان، أن تستعد دائمًا***، { يَسۡـَٔلُونَكَ} يكررون الأسئلة عن الساعة بصيغة المضارع.

{كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ} [الأعراف:١٨٧]، تكرر رد علمها إلى الله مرتين في الآية { إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي} و { إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ الله}، وفي هذا دلالة أن ضغط الأسئلة وكثرة تكرارها لا يجعلني أبدًا أغير إجابتي، فلمَّا سأل في المرة الأولى: {يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ}، أجبت: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي}، وأجبتُ الإجابة ذاتها لما كرَّر السؤال في المرة الثانية: {ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[الأعراف:١٨٧]. فضغط الأسئلة لا يدفعني لتغيير الإجابة.

ما معنى قوله تعالى: {يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا}[الأعراف:١٨٧]؟! القول الأقرب إلى اللغة الذي نتوقعه هو أن الحَفِيّ عن الساعة هو من يسأل عنها كثيرًا، فحَفِيٌّ في المسألة أي يُكثِر في السؤال عنها، فيسألونك وكأنك قد حفيت في السؤال عنها واحتفيت بها وسألت عنها كثيرًا حتى عرفت الإجابة وأخفيتها عنهم.

أو القول الآخر وهو قولٌ مشهورٌ: قالوا معناها يتبين من سياق الآية، وفي الآية تقديم وتأخير، فأصل الآية: "يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بهم"، أي كأنَّ بينك وبينهم مَوَدَّةٌ أغرتهم بسؤالك عن وقت الساعة، فكأنهم يقولون: والمودة التي بيننا، فلتخبرني متى سيكون يوم القيامة! فكأنك تعرف متى الساعة وتخبء ذلك، لكنك ستخبر هؤلاء لأنهم أقارب!

{يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ}[الأعراف:١٨٧]، سواءً كان معنى الحفي ضغط بالقرابة والمودة أو بتكرار السؤال: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف:١٨٧].

والقضية ليست فقط أني لا أعلم متى الساعة فقط، ولكنِّي بشرٌ، وقد تحدثتُ سابقًا عن التصورات الوهمية عن الرسالة واعتقاد أن الرسول لا بد أن يكون معه أسورةٌ من ذهب وتأتي معه الملائكة مقترنين، وتكون معيشته مختلفة عن الناس؛ فلا يأكل الطعام ولا يمشي في الأسواق، ويعتقدون أنه لا بد أن يعلم كلَّ شيء، فهذا هو التصور الخاطئ الذي اعتقده النصارى عن المسيح عليه السلام وهو بشر، فرفعوه فوق مرتبة البشر، رفعوه لدرجة الألوهية –تعالى الله عما يقولون–.

فهنا {قُل}: كلمةٌ واضحة، أمرٌ مِنَ الله، قل لهم: {لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى}: فضلًا على أن أملك لغيري.
{قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ}[الأعراف:١٨٨]

{وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ}: تخيل أن من يقول هذا هو النبي: {وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ} [الأعراف:١٨٨]، لو كان ذلك لم تكن الحرب بينا سجال تنتصرون مرة وننتصر مرة، لو كنتُ أعلم لم أكن لأصاب بأي سوءٍ في الدنيا، ولم أكن لأبتلى، هو يُبتلى ويُصاب ويُقاتِل ويُقاتَل وأُوذي وأُصيب صلى الله عليه وسلم في أُحد ونزل الدم من وجهه الشريف!

قل: {وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ} [الأعراف:١٨٨]، لم يَكُن ليخرج لغزوة أحد، {وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا}، إنما وظيفتي -لكي لا تضعني فوق وظيفتي-: {إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} [الأعراف:١٨٨]، ومن أراد أن يؤمن هو الذي سيستفيد مني: {لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:١٨٨].

فهذه آية واضحة من المحكمات التي تجعل المرء يتعجب ممن يُثيروا قضية التوسل بقبر النبي أو بقبور الصالحين، على الرغم أنه من المحكمات المبثوثة في القرآن أن الله وحده يملك النفع والضر، فهذه عقيدة محكمة، فعجبًا لمن يطرح المتشابه في كلام بعض الأئمة كأنه الأصل.

وأتعجب من إصرار بعض الناس في الفترة الحالية على طرح قضية التوسل، لِمَ يُصر على فعل هذا؟! وفي الوقت ذاته يعتب على بعض الناس إصرارهم على تكرار الأحكام الفقهية الفرعية، وهو مصر أن يتكلم في قضية التوسل. لم وهي آية محكمة؟! { قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ ...} [الأعراف:١٨٨] هذا والنبي صلى الله عليه وسلم حي، ففي بعض الأحيان توجد تصورات وهمية عن الرسالة أو عن الأولياء الصالحين، فالولي تُثبِت ولايته لله بما رأيت -وأنت بما تقول تحسبه كذلك- لكن أن تستغيث بقبره أو تظن أنه يضر أو ينفع، هذا أمرٌ عجيب!

▪ إشكالية

ثم قال ربّنا: {هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ} [الأعراف:١٨٩]؛ هذه الآية من الآيات المشكِلة في التفسير أي أن فيها إشكالية وقف عندها الكثير من المفسرين، فما هي هذه الإشكالية؟!

أن ظاهر الآيات: {خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}[الأعراف:١٨٩] أي خلق الله البشر من آدم وحواء، النفس الواحدة في الآية: {مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} هو آدم، {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا}؛ أي حواء.

{فَلَمَّا تَغَشَّاهَا} لما جامع آدم حَوَّاء، وحملت: {فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا}؛ أي طلبوا من ربهم: {لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[الأعراف:١٨٩,١٩٠]، من الممكن أن يدل السياق على أن آدم وحواء هما من جعلا شركاء، **الإشكالية هنا: كيف يشرك سيدنا آدم؟!** وقد وجدت بالفعل بعض الأقوال المروية عن بعض السلف أن هذه الآية المقصود بها آدم وحواء، فهذا سبب الإشكال.

ومن أفضل الكتب المعاصرة التي عالجت هذه الآية واستفاضت فيها كتاب رائع اسمه: "الأحاديث المشكلة في التفسير" د.أحمد عبد العزيز مقرن القُصَيِّر، طبعة دار ابن الجوزي، وبالرغم من ندرته، لكنَّه موجود -الحمد لله- على الشبكة في الشاملة، هذا الكتاب به فصل طويل اختص بهذه الآية، كما أجاد وأفاد ابن كثير وغيره بالطبع أيضًا، لكنَّنا سنذكر كل الأقوال لأنها معتبرة، حتى لا نسارع بالإنكار على كل من أخذ بالقول الثاني.

{۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}[الأعراف:١٨٩]: سأذكر **القول الأول** -وهو قولٌ مشهور- لكثيرٍ من المفسرين كالإمام الطبري وابن عطية والبغوي، ونسبه ابن الجوزي لجمهور المفسرين، وأنكره أئمة آخرون مثل ابن كثير والقاسمي وآخرون، وهو الأشهر:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ}؛ خلقكم الله، {مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}؛ وهو آدم، {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا}؛ وهي حواء، {لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}، {وَجَعَلَ مِنْهَا}؛ قيل أن هذه إشارة إلى أن حواء خلقت من ضلعِ آدم، وبعضهم أنكرَ هذا الأثر، المهم أنها جزء منه، {لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}؛ أي حتى يستطيع أن يسكن إليها، فالإنسان لا يسكن إلى الضد، ولكنه يسكن إلى الذي من نفسه، وهنا جاء التعبير عن البيت بالسكن، ***فغياب السكينة عن البيوت يهدمها***، فإن لم يجد الزوج السكن عند زوجته، والزوجة لم تجد السكن، فحينئذٍ تُهدم البيوت.

{لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}: ***فيها دلالة على حاجة الرجل إلى السكون***، {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا}: أي الجماع، {حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا}: ففي بداية الحمل يكون خفيفًا، {فَمَرَّتْ بِهِ}: يقول جمهور المفسرين أن المقصود هو الاستمرار، بالحمل أي أن الحمل استمر المدة كاملة فقامت وقعدت وتحركت به، ولكن قلة قالوا: {فَمَرَّتْ بِهِ}؛ أي شَكَّت في الحمل، من المرية: {فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ}[النجم:٥٥] أي تشك، {فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ}[هود:١٧]؛ أي في شكٍّ منه.

{فَلَمَّا أَثْقَلَتْ}: **أي** صار الحملُ واضحًا وثقيلًا في آخره، فتخشى الأم على حملها، {فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا}[الأعراف:١٨٩]: طلبوا من الله، وهذا هو الحمل الأول -إذا أخذنا بقول أنها حواء- فخافا عليه: {فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}[الأعراف:١٨٩]: قال جمهور المفسرين أن: {صَالِحًا}، **أي** ابنٌ صالحٌ سَوِيٌّ في البدن، وليس المقصود أنه يعمل الصالحات.

ما هو الأثر المشهور في هذا الرأي؟! الأثر المشهور المروي عن كثيرٌ من السلف وذكره كثير من الأئمة أنه لما حملت حواء جاءها الشيطان وقال لها: (وما يدريكِ أن الذي في بطنك ليس بهيمة أو ضأن أو .. أو ..، وخَوَّفها من أن تلده مُشَوَّهًا، فقالت إذًا ماذا أفعل؟! قال لها: سَمِّيه عبد الحارث لئلا يُؤذى.) وكان -الشيطان- يسمى الحارث في السماء لكثرة عبادته، وكما قلنا أن أصدق الأسماء حارث وهمام.

وقيل في روايات أنها سمته عبد الله فمات، فلما سمته عبد الحارث عاش، وقيل أنها لما قالت لسيدنا آدم في المرة الأولى أنكر عليها، لكنه في المرة الثانية سكت، فلم يُوافق ولم يُنكر عليها، هذا من الإسرائيليات التي رُوِيَت، بعض الأئمة وافق عليها، وقال أن الشرك هنا: شرك التسمية وليس شرك العبادة، وقد حذَّر القرآن من أقل أنواع الشرك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من حلفَ بغيرِ الله فقد أشرك)[١٨].

إذًا فالذي يُقسم بعشرة جنيهات أو دولارات، هل صار كافرًا فيُخَلَّد في النار؟! لا، فقد أشرك؛ أي في القسم، ***لذلك تكفير هذا الشرك هو أن يقول: لا إله إلا الله***، فهوَ لم يخرج من دائرة الإسلام، وقد قيل أن **الشرك درجات**، فمنها الشرك الخَفِيّ -ليس شرك عبادة-، ومنها شرك العبادة، فالشرك هنا شرك تسمية، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (هل تدرونَ ماذا قالَ ربُّكُم؟ قالوا: اللَّهُ ورسولُهُ أعلَمُ، قال: قالَ أصبحَ من عبادي مؤمِنٌ بي، وَكافرٌ: فأمّا من قالَ مُطِرنا بفضلِ اللَّهِ وبرحمتِهِ فذلِكَ مؤمنٌ بي

[١٨] - [عن عبدالله بن عمر:] مَنْ حلفَ بغيرِ اللهِ فقَدْ أشرَكَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٦٢٠٤ • **صحيح** • أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، وأحمد (٥٣٧٥) واللفظ لها، والترمذي (١٥٣٥) باختلاف يسير

كافرٌ بالْكواكبِ، وأمّا من قال: مُطِرنا بنوءِ كذا وَكذا فذلِكَ كافرٌ بِي مؤمنٌ بالْكوْكبِ)[١٩]، فقالوا أنه من المحتمل أن يكون الكفر المقصود هو الكُفْر الأكبر باعتقاد أن السماء تُمطِر بدون الحاجة لله، وأنه لا يوجد إله، فمن فعل ذلك فهو كافر، ومن الممكن أن يكون المقصود أنه يوجد إله، لكن السماء يُمكنها أن تُمطر بعيدًا عنه أو مُستقلَّة عنه، فعلى حسب درجة الكفر.

وهذا الأمر مشروحٌ في كتب العقيدة وموجودٌ في كتاب التوحيد، لكن الشاهد أنه توجد درجات من الشرك، فليس المقصود هنا الشرك الأكبر، لكنه الشرك الأصغر مثل الرياء، أو الشرك الخفي.

فمن اختار أن المقصود في تلك الآية هو سيدنا آدم وأُمُّنا حَوَّاء قال الشرك هنا شرك التسمية، ***وأن الآية تُحَذِّرُنا حتى من الشرك في الأسماء، فالتعامل مع قضية التوحيد يكون بحذر*** فقد قال الله تعالى: {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}[الأعراف:١٨٠]، فبعض القضايا مثل التوحيد ينبغي أن تتعامل فيها بحذر ودقة، فالشرك ممكن أن يبدأ بأن تنسب أفعالًا لغير الله، فجاءت الآية تُحَذِّرُك من الشرك.

فقالوا أن معنى الآية: {۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}: آدم، {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا}: حواء، {لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}: تزوجها، {حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ}: استمر الحمل، {أَثْقَلَتْ}: وصل الحمل لآخره فخافا على الجنين أن يُولد مُشَوَّهًا، ف {دَعَوَا}: آدم وحَوَّاء، {اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا}: **أي** سليمًا، {لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ}[الأعراف:١٨٩,١٩٠]: أي سمياه عبد الحارث، {فِيمَا ءَاتَاهُمَا}: انتهت الآية هنا، يُوجَد وقفٌ لازمٌ، فيَلْزَم الوقف.

فيكونُ معنى الآية أن الله كما أنكر على آدم مجرد التسمية، فكيف بمن سَمَّى الأصنام باللات والعزى ثم يعبدها، {فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[الأعراف:١٩٠]؛ **أي** أهل الشرك والأوثان، تُوجد ثمانية أقوال في تفسير هذه الآية، سَنَذكر منهما اثنان فقط، قلنا أنَّ تلك الآية فيها إشكالية، فيجب أن تفهم الإشكالية جيدًا حتى لا يُشَوَّش ذهنك.

ثم قال سبحانه: {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا}[الأعراف:١٩١,١٩٢] وبقية الآيات في المشركين.

---

[١٩] - [عن زيد بن خالد الجهني:] هل تدرونَ ماذا قالَ ربُّكُم؟ قالوا: اللَّهُ ورسولُهُ أعلَمُ، قال: قالَ أصبحَ من عبادي مؤمِنٌ بي، وَكافرٌ: فأمّا من قالَ مُطِرنا بفضلِ اللَّهِ وبرحمتِهِ فذلِكَ مؤمنٌ بي كافرٌ بالْكواكبِ، وأمّا من قال: مُطِرنا بنوءِ كذا وَكذا فذلِكَ كافرٌ بي مؤمنٌ بالْكوْكبِ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح أبي داود ٣٩٠٦ • **صحيح**

ومن رفض هذه القصة أنكرها وقال أنها من الإسرائيليات مثل ابن كثير، وهناك حديث موجود في الترمذي وفي مسند الإمام أحمد مرويٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم، والأشهر هو حديث مسند الإمام أحمد المرويٌ عن طريق قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب ومرويٌ فيه: أن فعلا إبليس جعل يطيف بَحوَّاء وحَوَّفَها فأسمته عبد الحارث، هذا الحديث حَسَّنَه قلةٌ من أهل العلم، لكن ضَعَّفَه كثيرٌ من أهل العلم منهم ابن كثير[٢٠]، وطرق تضعيف الحديث مُفَصَّلة ذكرها ابن كثير، وقال أن الحسن المذكور في السند :قتادة عن الحسن عن سمرة، هو نفسه له رأيٌ آخر في القصة المذكورة.

إذًا فما معنى الآية؟! {۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}[الأعراف:١٨٩]؛ أي كلُّ الناس مخلوقين من نفسٍ واحدة، كل واحدٍ جعل الله له زوجة: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا}، فالله خلق الناس ذكورًا وإناثًا: {لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا}؛ فلما تَزَوَّج أحد الذكور الموجودين في الأرض بامرأة من الموجودات في الأرض، أي جنس الذكور مع جنس الإناث، تغشى زوجٌ زوجه؛ أي تزوجها وجامعها، فحملت.

فهذا نموذجٌ للبشر إذا احتاجوا الله فإنهم يقولون: يا رب، وإذا لم يحتاجوا الله يقولوا انتهى الأمر، فلا نريد شيئًا، وهو نفس نموذج المشركين إذا كانوا في وسط البحر.

{ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا} لا يحتاجون الله {فَمَرَّتْ بِهِ}: لم تطلب شيئًا من الله، {فَلَمَّا أَثْقَلَتْ}: لما ثَقُلَ عليهما الأمر قالا: يا رب، {فَلَمَّآ ءَاتَاهُمَا صَالِحًا}: قالا انتهى الأمر فلا حاجةَ لنا عند الله، هذا نموذج تغير الإنسان.

وأنا أميل إلى هذا القول وهو اختيار ابن كثير، وكثير من الأئمة كابن كثير والسعدي وابن عثيمين الذي أفاض في الشرح، على الرغم من وجود فروق طفيفة بين الرافضين للقصة فمن أراد أن يستزيد فليرجع إلى الكتاب الذي أشرتُ إليه.

لكنهم قالوا: أن معنى الآية أنَّ من جعل له شركاء { جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ} هو الجنس البشري بصفة عامة، ووافق بعضهم على أن الآية الأولى تقصد سيدنا آدم {۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}، {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا}: حواء، {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا}: آدم وحَوَّاء أيضًا، ثُمَّ قال: {فَلَمَّآ ءَاتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا}: أي الأولاد

---

[٢٠]- [عن سمرة بن جندب:] لما ولدت حواءُ طاف بها إبليسُ وكان لا يعيشُ لها ولدٌ فقال سمِّيه عبدَ الحارثِ فإنه يعيشُ فسمَّتْه عبدَ الحارثِ فعاش وكان ذلك من وحي الشيطانِ وأمْرِه
ابن كثير (ت ٧٧٤)، البداية والنهاية ٨٩/١ • **روي موقوفا على الصحابي وهذا أشبه وهو الصواب والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات**

أو الذرية، فآدم وحواء لم يُشرِكا، لكن الذرية من الذكور والإناث هم الذين أشركوا، فقال أنَّ الشرك وقع من الذُّرية، ولم يقع من آدم وحواء، وهذا قول من حاول أن يُوَجِّه الأمر، لكن مع وجود بعض التغيّر.

مهما كانت التفاصيل ستجدونها في الكتاب المشار إليه، وأنكر ابن كثير والرازي والزمخشري والقاسمي والسعدي، فهؤلاء كلهم أنكروا هذه القصة.

الشاهد الذي أريد قوله أن الخلاف مُعتبرَ، فالكل نَفَى الشرك الصريح أو شرك العبادة عن آدم، ومن نسب لآدم هذه القصة قال أن الشرك هنا شرك التسمية لنَحذَره ونضبط ألسنتنا حتى في الحَلِف.

لذلك لما قابل النبي صلى الله عليه وسلم خطيبًا يخطب أمامه فقال: "ومن يطع الله ورسوله فقد رَشُد ومن يعصهما.."، وضع الله والنبي صلى الله عليه وسلم في ضميرٍ واحد، قال "ومَن يعصهما"، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (بئس خطيب القوم أنت)[٢١]، بسبب ما قال، قال: (لا تقل ومن يعصهما، ولكن قل ومن يعص الله ورسوله)، أي افصل بينهما، فتأمل الحذر والحساسية في هذا الأمر.

والنبي صلى الله عليه وسلم لما رأى رؤية أن عليه أن يُعَلِّم المسلمين ألا يقولوا: (ما شاء الله وشئت)[٢٢]، ولكن فليفصلوا بين الله ورسوله ب "ثم"، فتأمل الحساسية في قضية التوحيد، لِمَ؟ لأن أمتنا جاءت بعد أُمة النصارى الذين ضَلُّوا لأنهم رفعوا البشر فوق منزلتهم.

لذلك كان النبي صلّى الله عليه وسلم حريصٌ على وضع هذه الضوابط: (إنما أنا عبد)[٢٣]، (إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)[٢٤]، ويُهَدِّئ من روعِ الناس، فإذا دخل الأعرابي لم يعرف مَنْ مِنَ الجالسين هو النبي صلى الله عليه وسلم، فكل المجلس واحد، فمن اختار هذا القول، قال أن هدف الآية هو ضبط هذا المفهوم، ولذلك يُوجد أثرٌ ولكنه ضعيفٌ، وأشبه بأنه موضوع، فهو مرويٌّ ومن الممكن أن تسمعه، يقولُ الأثر: (أن إبليس خدعهما مرتين: مرة في السماء ومرة في الأرض)، لذا من حاول أن

---

[٢١] - [عن عدي بن حاتم الطائي:] أنَّ خَطيبًا خطبَ عندَ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فقالَ: مَن يُطعِ اللَّهَ ورسولَهُ فقد رشدَ، ومن يعصِهِما، فقالَ: قُم - أوِ اذهَب - بِئسَ الخطيبُ أنتَ/الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح أبي داود ١٠٩٩ • **صحيح**

[٢٢] - أنَّ النَّبيَّ ﷺ سمِع يومًا بعضَ الصَّحابةِ يقولُ لهُ: ما شاء اللهُ وشئتَ ! فقال: أجعلتَني للهِ نِدًّا؟ !/الألباني (ت ١٤٢٠)، تحذير الساجد ١٤٥ • **صحيح**

[٢٣] - [عن عمر بن الخطاب:] لا تُطْرُوني كما أَطْرَتِ النَّصارى ابنَ مريمَ، إنَّما أنا عَبْدٌ، فَقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُهُ/الألباني (ت ١٤٢٠)، مختصر الشمائل ٢٨٤ • **صحيح**

[٢٤] - [عن قيس بن أبي حازم:] أنَّ رجلًا أتى رسولَ اللهِ ﷺ، فقام بين يدَيه، فأخذه من الرِّعدةِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: هوِّنْ عليك فإني لستُ بملِكٍ إنما أنا ابن امرأةٍ من قريشٍ كانت تأكلُ القَديدَ/الألباني (ت ١٤٢٠)، السلسلة الصحيحة ٤٩٦/٤ • **إسناده صحيح مرسل**

يختار هذه القصة قال أن سورة الأعراف بدأت بخداع إبليس لآدم، وانتهت بخداع إبليس لحوَّاء، فحاول أن يربط بينهما، من اختار هذا القول مثل الإمام الطبري، لكن كما أخبرتكم أنِّي أمْيَل لقول ابن كثير واختيار الإمام الحسن، وإن كان هذا ليس نَص اختيار الحسن، ولكن اختياره كان الجنس البشري عامة.

وقد قيلت ردودٌ كثيرةٌ جدًّا جدًّا جدًّا، منها أنه ليس من المعقول أن يذكر الله معصيةً في القرآن ولا يذكر توبتها، فلم تُذكر معصيةٌ لنبيٍّ إلا وذكر الله توبتها، والله لم يذكر لنا توبة آدم من هذه المعصية في القرآن، ولا حتى في حديث الشفاعة المشهور، أنه كلما ذهب البشر لنبيٍّ، فإنه يذكر أخطر معصية فعلها أو موقفًا مرَّ به أو فِعلًا خلاف الأولى، يقول اذهبوا إلى فلان، فآدم قال أنا أكلت من الشجرة، فهل وسم الشرك حتى لو في الأسماء أخطر أم الأكل من الشجرة؟! فكان من الممكن أن يقول: (أنا أكلت من الشجرة وسمّيت عبد الحارث)، لكنه لم يقل هذا، وقيلت كثيرٌ من الشواهد التي تدل على أن هذه القصة لم تحدث وأنها من الإسرائيليات، لكنَّا لا نقول أن من يأخذ بهذا القول هو مبتدع، لأنه منسوبٌ أيضًا للأئمة لكننا نرفضه.

{فَلَمّا أَثْقَلَت دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِن آتَيتَنا صالِحًا لَنَكونَنَّ مِنَ الشّاكِرينَ* فَلَمّا آتاهُما صالِحًا} [الأعراف:١٨٩,١٩٠]: للأسف هذه عادة الإنسان كلما شعر بنوعٍ من التمكُّن، فتكون حالته في منتصف البحر مختلفة تمامًا عن حالتِه إذا وصل إلى البر: {مَرَّ كَأَن لَم يَدعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ} [يونس:١٢]، كما يختلف وضعه في الاختبارات عن حالته في الإجازة، لأنه يشعر أنَّه مستغنٍ، وإن لُبَّ الطغيان وأساسه هو شعور الإنسان الوهمي بالاستغناء.

{جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمّا يُشرِكونَ} [الأعراف:١٩٠]، ثم الإنكار على من يشرك بغير الله، **والختام بقضية التوحيد** -أهم قضية في السورة-، نختم بإذن الله سبحانه وتعالى-إن يسّر الله لنا- المرة القادمة أو التي تليها، آخر شيء سأطلب منكم طلبًا، هذا هو المجلس العشرين تقريبًا في سورة الأعراف -بفضل الله- ومن ممكن أن توجد بعض التساؤلات نتيجة بعض المفاهيم التي حاولنا ذِكْرها خلال السورة، فمن لديه تساؤلًا سواء من الرجال أو من النساء فليكتبها، حتى نُفرغ لها مجلسًا خاصًّا - إن كانت كثيرة- بعد أن ننتهي من سورة الأعراف لمناقشتها، وسنستقبل الأسئلة هذه المرة والمرة القادمة وأرجو أن تكون تمس المفاهيم التي ذكرناها في سورة الأعراف.

أسأل الله عز وجل أن يُعلّمنا وأن يُفهِّمنا وأن يجعلنا من أهل القرآن وأن يستعملنا ولا يستبدلنا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.